صيام رمضان كما يجب

● **الغاية من الخطبة** : تصويب أخطاء تعوق الصيام الشرعى الصحيح .

● **النقاط الأساسية** :

(١) الغاية من الصيام هي التقوى . فما معنى التقوى المنشودة ؟

(٢) شهر القرآن ، هدًى للناس ، كيف نصل إلى هَدْى القرآن الكريم ؟

(٣) اقتراف المعاصى في رمضان : قول الزور ، وأكْل أموال الناس بالباطل ؛ والتوبة .

(٤) صلاةُ القيامِ والاعتكاف .

(٥) ثواب اللهِ العظيم على الصوم الصحيح .

(٦) ما المقصود بفتح أبواب الجنة وإغلاق أبواب الجحيم في شهر رمضان ؟

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

١- نستقبل شهر رمضان المعظم بشوق وفرحٍ وبهجةٍ ، ونسألُ اللهَ تعالى أن يوفقنا إلى صيامهِ الصيام الشرعى السديد ، وأن يحقق لنا الغايات العظيمة التي تُرجى من صيامهِ ، وأن يتقبل منا صيامنا ونفقاتِنا واعتكافنا ، وكلَّ عملٍ صالحٍ يوفقنا إليه فيه ، وأن يَجْزِينا على ذلك الجزاء العظيم اللائق بكرمه وفضْله الواسع الكريم .

- والآن نسأل أنفسنا : ما الغاية المنشودة من صوم رمضان؟ يجيب القرآن الكريم على هذا التساؤل في الآية نفسها التي أوجبت الصيام علينا ، فيقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣) فالغاية من صوم رمضان المبارك هي التقوى . والتقوى تعنى الطاعة ، والطاعةُ تعنى العملَ بأوامرِ اللهِ تعالى وأوامرِ رسولهِ ﷺ ، كما تعنى الانتهاء عمّا نهى اللهُ تعالى ورسولُه . وهكذا نرى أن التقوى أو الغاية النهائية للصوم - تتطلب الإرادة القوية التي تُمكِّن صاحبها من لجْمِ الشهواتِ

وكَبْحِ الأهْواء ، ودَفْعِ الفرد إلى عمل الطاعات والصالحات . والصومُ تدريبٌ عظيمٌ للإرادة . فالطفلُ المسلمُ منذُ صِغَرِهِ يتدربُ على الصيام ، وفي الوقتِ نفسه يُربى في نفسه الإرادة الحازمةَ التي تستطيعُ التحكم في شهوة الطعام والشراب وغيرها من الشهوات وتُخضعها لشريعة اللهِ تعالى . فإذا نجح في تربية الإرادة أصبح قادراً على الانتهاء عمّا نهى الله ورسوله ، وإتْيان الطاعات التي أمر بها الله تعالى والتي أمر بها رسوله ﷺ . وليس المقصودُ بهذا أن يكون المسلم تقيّاً فقط في أثناءِ الصيام ، فإذا حلّ الليلُ اقترف الآثام ، وتقاعس عن الطاعات ؛ وليس المقصود بهذا أن يكون المسلم تقيّاً طوال شهر رمضان ، فإذا جاءَ شوّال أطلق العنان لشهواته وغرائزه ، وتخلّى عن واجباته الدينية والأخلاقية . فإن من البَدَهي أن الغاية من صيام رمضان الطاعة في رمضان وبعد رمضان . فالمسلم يدخلُ شهر الصيام كما يدخل المريض المستشفى للعلاج . والمريض بطبيعة الحال يُريدُ الصحة والعافية بعدَ الخروج من المستشفى . ولوْ عَاوَدَهُ المرض بعد الخروج من المستشفى لاعْتبر العلاج فاشلاً وخاطئاً . وكذلك الصائم ، إذا عاد إلى المعاصي بعد رمضان فكأنَّ صيامه لم يُحققْ الغاية القُصوى له ، وهي التقوى ، ولم يُرَبِّ الإرادةَ القوية الحازمة التي تحول بينه وبين المعاصي ، وتعينُه على التوبة النصوح .

- فلْيضع كل واحد منا هذه الغاية أمام عينيه وليخطط وليجتهد لبلوغها . فإذا كان يُدخن ـ مثلاً ـ قبل رمضان ، وامتنع عن التدخين في رمضان ، فلماذا لا يواصل الامتناع عن التدخين بعد رمضان؟ وإذا كان قاطعَ رَحِمٍ ، ثم وصل الرحم في رمضان ، فلماذا لا يستمر في صلة الرحم بعد رمضان؟ !

٢- والقرآن الكريم يُعلّمنا أن شهر رمضان هو شهر القرآن وهَدْيه . فيقول ﷻ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة:١٨٥) وقد فهمنا من هذه الآية الكريمة أن علينا أن نقرأ القرآن ؛ وأن نجتهد في القراءة . وتسابق المسلمون في ذلك . ولكنْ هل هذا هو كلُّ الواجب المفروض علينا ؟ وهلْ القراءة وحدها تبلغنا غايتنا ـ وهي الهُدى ؟ الجواب

بالنفي . فلابد أن نقرأ القرآن الكريم ، وأن نتدبر آياته لكي نفهم معانيها ، ونتأثرَ بها ، ولذلك نعمل بها . والقراءةُ السريعة التي يقرأها معظم المسلمين لا تُحقق التدبر والفهم ، ولا تؤثرُ في تفكير القارئ أو في سلوكه وأعماله إلا قليلاً .

- وهناك آفة مُخربة تُبطل مفعول القراءة ، وتحول بين المسلم وهَدْى القرآن ، ألا وهي : الملاهي العديدة الصاخبة التي تتكاثف في شهر الصوم الكريم على هيئة برامج تلفازية وسلاسل درامية وحفلات موسيقية ، وفوازير ، وألف ليلة وليلة ، ورقص وتواشيح ، وموالد لا تنفض ! فواجب المسلم أن يجعل القرآن الكريم ينفرد بقلبه وعقله فلا تُزاحمه فوازيرٌ ولا مُسلسلاتٌ ، ولا أيُّ شُغل آخر .

٣- واقتراف المعاصي في أثناء الصيام يُجرده من الثواب والقيمة . ويرى بعض الفقهاء أن الكبائر تُبطلُ الصيام ، لقول رسول الله ﷺ : « من لم يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به فليس للهِ حَاجةٌ في أنْ يَدَعَ طعامهُ وشرابه». وقوله : « الصيامُ جُنَّةٌ ، فإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرْفُث ولا يصْخبُ ولا يجْهلُ . وإن امرؤٌ قاتلهُ أو شاتمهُ فليقُلْ إني صائمٌ - مرتين - . والذي نفسي بيده لخُلُوفُ فَم الصائمِ أطيب عند اللهِ من ريحِ المسكِ». وكيف يجوز أن يرتكب المسلم المعصية وهو يؤدى عبادةً ؟ ! إن ذلك أمرٌ سخيفٌ وغير مقبول . والواجبُ يُحتم علينا مُضاعفةَ الأعمال الصالحة . والرسول ﷺ هو الأسوةُ الحسنة لنا . فهو المَثَلُ الأعلى في البذل والعطاء ، وفي الكرم والجودِ ، و : « كان أجودَ ما يكونُ في رمضان». فاتقوا الله عبادَ اللهِ وكُفّوا عن المعاصي التي تُبطل الصيام . وضاعِفوا من عمل الخيرات وبذل النفقات اقتداءً برسولكم الكريم ﷺ .

٤- ومن العبادات التي لا تُمارس إلاّ في رمضان المبارك : صلاة التراويح والاعتكاف في العشر الأواخر من الشهر الكريم . فاحْرصوا عليهما . ونحمد الله تعالى أن كثيراً من المساجد قد أحيت هذه السُّننَ في الفترةِ الأخيرة ، ونسألُ اللهَ تعالى أن يزداد عددها وأنْ يتضاعف عدد المُعتكفين فيها ، ويجنى الصالحون

ثوابُ الاعتكاف وثواب التراويح إلى جانب ثواب الصيام وزكاةِ الفطرِ والتبرُّعات والنفقات المالية الخيرة .

٥- وثواب صوم رمضان المبارك عظيمٌ جداً . فيقول الرسول ﷺ : « مَنْ صام رمضانَ إيماناً واحْتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه ». وهذه بُشرى عظيمة للمسلمين . ومعنى هذا الحديث الشريف ـ والله أعلم ـ أنّ الصيام الذي جَـزَاؤه المغفرة يجبُ أن يكون خالصاً لوجه اللهِ تعالى ، بريئاً من الرياءِ والنفاق . والحقُّ أن إخلاص النّية لله تعالى شرطٌ لقبول الأعمال كلّها . وفي الحديث القُدسى جاءَ الدليل على عظمة صيام رمضان . يقولُ نصُّ الحديث : « كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له إلاَّ الصيامُ ، فهو لي وأنا أجْزى به ، وإنما يَـدَعُ ابنُ آدمَ شهوتَـه وطعامهُ من أجْلى ». والحق أن كل أعمال الإنسان محسوبةٌ له أو عليه ، لا الصيام وحده . هذه حقيقةٌ شرعيةٌ لا مِراءَ فيها . ويقول العلماءُ إن هذا الحديثَ القُدْسى يعنى تشريف الصيام بنسْبتِهِ إلى اللهِ تعالى ، وبيان عظمةِ ثوابه عند ربنا ﷻ .

٦- وتقوى الله في رمضان ، وكثرة الأعمال الصالحة فيه : من صيامٍ وقيامٍ ونفقاتٍ واعتكافٍ ، وبُعْدٍ عن المعاصى ، كل ذلك يُضاعف الثواب فيه . وهذا هو مَغْزى الخبر الذي يقولُ إنه : « إذا دخل شهرُ رمضان فُتحتْ أبواب الجنة وغـلّقتْ أبواب جهنم ، وسُلسِلتْ الشياطين ». فالمعلوم في دينِ اللهِ أن الجنةَ سوف تَفتَحُ أبوابها بعد النّشور والحساب والميزان . وكـذلك أبـوابُ جهنـم . فالحديث لا يقولُ غيرَ هذا . إنه يُشيرُ إلى كثرة الثواب الذي يُؤهلُ العباد إلى دخول الجنة ، ويُباعد بينهم وبين جهنم . والشياطين تُسلْسل حقاً ، ولكنْ ليس بحبلٍ أو غيره ، بلْ بإرادة الصائم القوية التي تَصُـد الشياطين وتحبط مساعيهم الشريرة .

فنسأل الله تعالى أنْ يُوفقنا إلى تقواه وطاعته ، وأن يهدينا بهَـدْى القرآن الكريم ، وأن يباعد بيننا وبين المعاصي ، ويتقبل منا قيامنا واعتكافنا ، وأن يشملنا بثوابه العميم ، آمين .

(الدعاء)

وصْف الجنة : مَوْعِدُ المُتقين

● **الغاية من الخطبـــة** : حث المسلمين على التقوى والطاعة ، وتنفيرهم من المعاصى .

● **النقاط الأساسية :**

(١) وصف بعض نعم الله تعالى في الجنة : الماء واللبن والخمر والعسل (سورة محمد) ، (سورة الإنسان) .

(٢) الأبرار في عِلّيين (سورة المطففين) .

(٣) فرحةُ المؤمن بالجنة . (سورة الحاقة) .

(٤) وصف أحوال المُتقين (سورة عبس) .

(٥) أحوال الكافرين ومَوْعُودهم .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

١- نُريدُ اليومَ أن نتذكر مَوعُودَ المُتقين وجوائز الأبرار والصالحين لكي نُقوى لدينا الباعث على الطاعة والتقوى وخَشية الله والابتعاد عن معصيته . ونُريدُ أيضاً أن نتذكر الوعيد الشديد ، المخيف ، للعُصاة والكافرين ، لكي نتجنب أفكارهم وأعمالهم المُهلكة . والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تصِفُ الجنة ونعيمها بقدر ما يستطيع الإنسان أن يفهم ويستوعب من أوصافها . فنحن نتخيل خطأً أن عِنبَ الآخرةِ ـ مثلاً ـ على أنه مِثلُ عِنبِ الدُّنيا ، وهكذا بقية الفواكه والخيرات والنعم . وهذا غيرُ صحيح . وفي هذا يقول ابن عباس ﷺ : « ليس في الجنةِ من أشياء الدنيا إلا الأسماء . يعنى اسم العِنبِ فقط هو الذي يُطلق على عِنبِ الآخرة ؛ ولكن عنب

الآخرة لا يُشبه عنب الدنيا ، ولا يمكن أن يُقارن به ، لأنه أجودُ وأحسنُ وألذ من عنب الدنيا بدرجةٍ لا يمكن وصفها . وهذا الكلام ينطبقُ على كل الفواكه والنعم الأخروية . فإذا فهمنا هذه الحقيقة فهمنا حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه إن في الجنة : « مالا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمِعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ». وبعد هذا لا يجوز أن يسأل إنسانٌ : لماذا يُطاف على المُتقين ـ في الآخرة ـ بآنية من فضةٍ؟ أو لماذا لم تكنْ من الذهب؟ ولماذا حُلُّوا بأساور من فِضةٍ ؟ وهلْ هذا يدُلُّ على أنهم لم يستحقوا أساور من ذهب؟ هذه الأسئلة خطأٌ . وسبب الخطأ هو الاعتقاد بأن الفضة في الآخرة مثلُ الفضةِ في الدنيا .

- ووصف الماء واللبن والعسل في الآخرة ، يؤكد الاختلاف التام بين أشياء الدنيا وأشياء الآخرة . يقول الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (محمد:١٥) فالماءُ لا يأسن ؛ ومعنى هذا أنه لا توجد بكتيريا في الآخرة . وهذه الحقيقة تَقلب كل معارفنا الدنيوية رأساً على عقب ! واللبنُ لا يتغير طعمُهُ ؛ يعنى لا يروبُ ولا يحمضُ ؛ وهذا لعدم وجود البكتيريا . والخمرُ لابد أن تكون خمراً أُخروية غير خمر الدنيا . فهي لا تُسكرُ ولا تُذهِبُ العقل ، ولكنها شرابٌ لذيذٌ سُمى خمراً ، لأن التخميرَ لا وجود له في الآخرة . ومصدر الخمر واللبن والعسل أنهارٌ . وهي أنهارٌ نقيةٌ طاهرةٌ مُطهرةٌ ، ليس فيها شوائب ولا طينٌ ولا عكارةٌ من أي نوعٍ ، لأن أراضى الجنة ليست كأراضي الدنيا في تكوينها المادي .

- فهذه المشروبات الأُخروية تنتظرُ المُتقين الصالحين الطائعين . وهي جائزةٌ هائلةٌ لا يمكن أن تُنسى . ولا يجوز لعاقل أن يُضيِّعُها بحماقات المعاصي لله تعالى ولرسوله الكريم .

٢- ويصفُ لنا القرآن الكريم مَوْعُودَ الأبرار فيقول : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (المطففين:١٨-٢٨) ومعنى هذه الآيات الكريمات أن الله تعالى كتب للأبرار أن يكونوا في عِلِّيين ، أى أعلى الدرجات في الجنة . وقد شهد الملائكةُ المُقربون ذلك الكتاب . فالأبرار في نعيم ، يجلسون على الأرائك ، فإذا نظر إليهم أحدٌ رأى في وجوههم نَضْرة النعيم . وهم يُسقَون شراباً صافياً نقياً ، ختامه المسكِ في نهاية الشُرْب . فليتنافس المتقون في العمل الصالح ، ليفوزوا بهذه الدرجةِ العليا ، وينعموا بذلك النعيم الأُخروي العظيم .

٣- ويصفُ القرآن الكريم فرحة المؤمن يومَ الحساب فيقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة:١٩-٢٤) فالمؤمن يُريدُ من الناس أن يقرأوا كتابه ، لأنه شهادة إلهية بالفوز بالجنة - أو صَكُّ مِلْكية لتلك الجنة الباهرة العالية في موقعها وفي قيمتها . لقد آمن الرجلُ بالبعث والحساب ، واتقى الله ليفوز بها ، وكُتِبَ له العيشُ فيها ، يأكلُ من قُطوفها الدانية ، جزاءً لما عَمِلهُ في سالف أيامه . فيا أيها المسلمون الأتقياء ، هذا هو مَوعُودُ اللهِ لكم ، وهو ﷻ لا يُخلِفُ الميعاد . فسيروا في طريق الطاعةِ لتنعموا بمثل هذه الفرحة التي لا مثيل لها ، وتفوزوا بالعيشة الراضية في الجنةِ العالية ، ذات القطوف الدانية التي لا تحتاج إلى مشقةٍ لقَطْفِها ، فيَمُدُّ الفائزُ يدهُ فتقترب الفاكهة من يده ليقطِفها !

٤- ويصفُ القرآن الكريم أحوالَ الفائزين بموعودِ اللهِ تعالى في الآخرة ، فيقولُ ﷻ :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾(الغاشية:٨-١١)وهي وجوهُ الطائعين المُتقين الصالحين. وكلمةُ « ناعمة » تعني أن أصحابها أهلُ نِعَمٍ . وهم سُعداءٌ بما عملوا في الدنيا سعادةً تامةً لأنهم رأوا نتيجةَ ذلك ورضُوا بها . فهاهم في الجنةِ العالية ، حيث لا يسمعون أى لَغْوٍ - وهو الكلام الكاذب والزائف ؛ وهم أنفسُهم لا يمارسون اللغْو . وهذه الحالُ الفريدة المُدهشة لا مثيل لها في الدنيا ؛ فلا أحدَ إلا ولَغَى ذات يوم في الدنيا . أما في الجنة ، فالفائزون لا يسمعون لغواً ولا يقولون لغواً . واللغوُ أحدُ الأسباب الأساسية في تعاسة البشر وأحزانهم في الدنيا . والبراءة من اللغو في الجنة سببٌ من أسباب النعيم والسعادة والرضا لمن فازوا بها . فكل كلمةٍ يقولها الفائز صِدْقٌ . فهذا سببٌ مهمٌّ جداً لنعومةِ وجوهِهم وإشراقِها ، لأن الكذبَ يُسَوِّدُ وجوهَ أصحابِه ويُكسبها غبرةً . واللهُ تعالى يقول : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (عبس:٣٨-٤٢) فهذا الموعودُ الرائعُ - يجب أن يُغرينا بأن نتمسكَ بطاعةِ الله تعالى ، في كل تصرفاتنا - في عبادتنا ومُعاملاتنا ، في تفكيرنا وفي أقوالنا . ولا شك أننا اليوم على غير ما يُرام . فنحن نُمارس الكثير من المعاصى ، خصوصاً في مُعاملاتنا المالية . ونحن نستهينُ بالكذب ، ونكثِ الوعودِ والعهود . ونحن لا نُحْسنُ أداء أعمالنا ، ولا نُتقنُ صناعاتنا ؛ ونحن قادرون على الإتقان والإحسان ، ولكننا للأسف الشديد نَميلُ إلى اللكلكة ، والإهمال والتسيب ، حتى في صلاتنا . ولهذا سبقنا اليهودُ والمُلحِدونَ من الأوروبيين والأمريكيين في مجالات الزراعة والصناعة والإدارة وسائر مجالات الحياة العملية .

٥- ويصِفُ القرآن الكريم موعود الكافرين والمتمردين على دين الله والعُصاة الآثمين . وبهذا الوصف تكتملُ صورة الآخرة ، والجنة والنار . والغاية من وراء ذلك ردْعُ النفوس البشرية المُتكبرة المتمردة الفاجرة الفاسقة . يقول جلَّ شأنه :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ (النازعات:٦-١٤) وفي كتاب الله أوصافٌ كثيرةٌ لما ينتظرُ الكفارَ والعَصاةَ والمتمردين من العذاب الأليم . فاتقوا الله عباد اللهِ وتـُوبوا إلى اللهِ وكـُفوا عن المعاصى والآثام ، واصنعوا الخيراتَ ، وتحلوا بالفضائلِ والأخلاق ، ولا تـُفرِّطوا فـي صلواتكم مهما كانت مَشاغِلـُكم واتَّبعوا سُنن نبيكم ﷺ لِتفوزوا بموعود المتقين وتـُفلتوا من مصير الآثمين والعاصين .

(الدعاء)

إعْمَارُ المَساجد

● **الغاية من الخطبة** : حث الناس على إعمار المساجد مَبْنًى ومعنًى .

● **العناصر الأساسية** :

(١) المسجد في الإسلام له دوره في حياة المجتمع ، فضلاً عن الصلاة .

(٢) المسجد النبوي المثال الأول .

(٣) المساجد لله وحده .

(٤) إعمار المساجد . وكيف يتحقق؟

(٥) جريمة تخريب المساجد .

(٦) مساجدنا اليوم .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

(١) المسجدُ في الإسلامِ هو بيتُ اللهِ تعالى . وهو بمَثابةِ القلبِ في القريةِ أو المدينةِ أو الحيِّ الذي يُوجَدُ فيه . والقلبُ لا بدَّ أن ينبضَ بالحياةِ ليلَ نهار . ولا شكَّ أن الصلاةَ هي أهمُّ عملٍ يُؤدَّى في المسجدِ . وقبل افتتاحِ الأسواقِ وبَدْءِ الأعمالِ في الصباحِ يُفتَتحُ المسجدُ لصلاةِ الفجرِ . وأولُ صَوتٍ يُسمَعُ في كلِّ يومٍ في المجتمعِ المسلمِ هو صوتُ المؤذنِ في المسجدِ يكبِّر ، ويتشهَّدُ ، وينادي المسلمين لأداءِ الصلاةِ في جماعةٍ . والمفروضُ شرعاً أن يظلَّ المسجدُ مفتوحاً من الفجرِ إلى العِشاءِ ، عامراً بالدروسِ الدينيةِ ، وتلاوةِ القرآنِ الكريمِ وتحفيظِه ، والاحتفالِ بالمناسباتِ الإسلاميةِ ، والنظرِ في شئونِ المسلمين وقضاياهم الفرديةِ والعامةِ . وإذا أُغلِقَ بعضُ الوقتِ فذلك لإتاحةِ الفرصةِ لتنظيفِه ، أو إجراءِ إصلاحاتٍ في مبانيهِ ومَرَافِقِه . وإمامُ المسجدِ يؤمُّ الناسَ ، ويُشرفُ على تحفيظِ القرآنِ الكريمِ ، وعلى مكتبةِ المسجدِ ، ويُعطِي الدروسَ للرجالِ والنساءِ والصبيانِ . فهو مشغولٌ بمَسجدِه دائماً .

(٢) والمَثلُ الأعلى الذي يجبُ أن يُحتذَى هو المسجدُ النبويُّ الشريفُ في المدينةِ المنورةِ . ففيه يُصلي المسلمون ، ويَلتقون . وكان النبيُّ ﷺ يجلسُ فيه لتعليمِ المسلمين ، ويستقبلُ زُوَّارَه الذين كانوا يجيئون إليه من أنحاءِ الأرضِ . وكان المسجدُ هو دارُ الحُكمِ والقضاءِ ، وكان يُسمَحُ لبعضِ الناسِ بالمَبيتِ فيه أيضاً .

- فبعد الهجرة إلى المدينةِ كان بناءُ المسجدِ النبويِّ الشريفِ أولَ المهماتِ الكبرى التي قامَ بها المسلمون ، وشاركَهم النبيُّ ﷺ في العملِ والبناءِ بيدِه الشريفةِ . وسَنَّ لنا ﷺ الدَّوْرَ المتعددَ الأغراضِ للمسجدِ . فهو لا يُغلَقُ بُعَيدَ كلِّ صلاةٍ ، بلْ يظلُّ عامراً بالأنشطةِ العديدةِ النافعةِ للإسلامِ والمسلمين ، فيدخلُ فقيهٌ ويخرج آخر ، وينتهي درسٌ لِيبدأَ غَيرُه ، وتُحلُّ قضيةٌ لكيْ تَتْبَعُها أخرى ، ويَنفضُّ اجتماعٌ لِيَنعَقِدَ اجتماعٌ آخر . فكان المسجدُ حياةً مُتدفقةً بالحيويةِ والنشاطِ تحت إشرافِ النبيِّ ﷺ وصحابتِه ﷺ .

- وقبل الهجرةِ لم يكن المسجدُ الحرامُ في مكةَ المكرمةِ بأيدي المسلمين ، فكان المشركون يمنعون المسلمين من القيامِ بالعبادةِ فيه وتلاوةِ القرآنِ وتعليمِ المسلمين ، وكانوا يعتدون عليهم . لكن بعد فتحِ مكةَ مارسَ المسلمون أنشِطتَهم العديدةَ في رحابِ بيتِ اللهِ الحرامِ ، على الطريقةِ نفسِها التي اتُّبِعَتْ في المسجدِ النبويِّ الشريفِ في المدينةِ المنورةِ .

(٣) وكلُّ الأنشطةِ التي مورسَتْ في الحرَمَيْنِ الشريفَيْنِ ، وفي المسجدِ الأقصى بعد بنائِه أيضاً ، وفي كلِّ مساجدِ المسلمين التي شُيِّدَتْ بعد ذلك ، كانت أنشطةً إسلاميةً خالصةً لوجهِ اللهِ تعالى ، واللهُ ﷻ يقولُ ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن:١٨) فكلُّ نشاطٍ يجبُ أن يُؤدَّى للهِ تعالى بإخلاصٍ ، لقولِه تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف:٢٩) فلا يجوزُ النشاطُ التجاريُّ - مثلاً - في المساجدِ ، بأن يَعرضَ البعضُ بضائعَه فيه ، أو يُمارسَ البعضُ الدِّعايةَ الانتخابيةَ . لكنَّ قضاءَ

المصالحِ العامةِ للقريةِ في المسجدِ جائزٌ . ففي غَيرِ وقتِ الصلاةِ يُنادَى في مكبراتِ الصوتِ بتنبيهاتٍ خاصةٍ بالزراعةِ أو الصحةِ أو الوَفياتِ .

(٤) وهكذا تَعْمُرُ مساجدُنا ولا تُهجَرُ . فنحن نبني المساجدَ للهِ تعالى ، ثم بعد ذلك نُعَمِّرُها بالصلاةِ والذِكرِ والعلمِ ؛ ولا يجبُ أن نَنسى أبداً قولَ اللهِ تعالى ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ (النور:٣٦،٣٧) وكلمةُ «أذِنَ» هنا معناها :«أمرَ وقضى»؛ و«تُرفَعُ» معناها «تُبنَى وتُعَلَّى». والآيةُ الكريمةُ تبيِّنُ بوضوحٍ أن واجبَ المسلمين عَدمُ هَجرِ المساجدِ ؛ وذلك بالعملِ الإسلاميِّ بالغُدوِّ والآصالِ ، يعني في كلِّ وقتٍ ، فلا تَشغَلُ المسلمين عن ذلك تجارةٌ ولا صناعةٌ ولا أيُّ عملٍ آخر . وهذا لا يعني أن نُهمِلَ أعمالَنا ونجلسَ في المسجدِ . كلاَّ ، إنَّ المقصودَ هو توزيعُ الوقتِ بحيثُ يكونُ للمسجدِ نصيبُه من أوقاتِنا ـ فنُصلي الجماعاتِ ونتلو كتابَ اللهِ ، ونأخذُ الدروسَ ، ونستمعُ إلى المواعِظِ . وبذلك نُعمِّرُ مساجدَنا ، وفي الوقتِ نفسِه نقومُ بواجباتِنا الدنيويةِ .

- وإعمارُ المسجدِ له أصولٌ وواجباتٌ . فعلى المسلمِ أن يُسلِّمَ وقتَ دخولِه المسجدِ ، إذا وجدَ إخوانَه جُلوساً ، وإن لم يكن في المسجدِ أحد قال : السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين ، وأن يركعَ ركعتيْن قبل أن يجلسَ ، وألاَّ يشتري فيه ولا يبيعَ ، ولا يَسُلُّ فيه سَهماً ولا سَيفاً ، ولا يطلبُ فيه ضالةً ، ولا يرفعُ فيه صَوتاً بغيرِ ذِكرِ اللهِ تعالى ، ولا يتكلمُ فيه بأحاديثِ الدنيا ، ولا يتخطَّى رقابَ الناسِ ، ولا ينازعُ في المكانِ ، ولا يضيِّقُ على أحدٍ في الصفِّ ، ولا يمرُّ بين يَديْ مُصَلٍّ ، ولا يَبصُقُ ولا يَتنخَّمُ ، ولا يتمخَّطُ فيه ، ولا يُفرقعُ أصابعَه ، ولا يعبثُ بشيءٍ من جسدِه .

(٥) وتخريبُ المساجدِ جريمةٌ كبرى . فالقريةُ التي تُهملُ صيانةَ مبنى المسجدِ حتى يَتلفَ هي آثمةٌ . وتخريبُ المسجدِ بهَجرِهِ إثمٌ عظيمٌ ، واللهُ تعالى يقولُ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة:١١٤) نسألُ اللهَ تعالى أن يوفقَنا جميعاً إلى تعميرِ مساجدِنا بالبناءِ والصيانةِ والنظافةِ والعبادةِ ، آمين .

(٦) ومساجدُنا اليومَ بعيدةٌ عن الصورةِ الصحيحةِ ، الحيويةِ ، للمسجدِ كما يجبُ أن يكونَ . وأخطرُ عيوبِنا فراغُ المساجدِ من العِلمِ والتعليمِ . وعلى الورقِ هناك دروسٌ للرجالِ والنساءِ . وهناك جدولٌ مُعلَّقٌ على الجدرانِ يبيِّنُ الدروسَ اليوميةَ من فقهٍ وعقيدةٍ ، وسيرةٍ وأخلاقٍ . لكنَّ هذه الدروسَ لا تُؤدَّى إلا نادراً ، في قليلٍ من المساجدِ . وتسألُ الإمامَ عنها فيقولُ إن الناسَ مشغولون عن الدينِ ودروسِه بمشاغلِ عديدةٍ . وهو يأخذُ المكافأةَ على هذه الدروسِ دون أن يُؤديها . وتسألُ الناسَ : لماذا لا تحضرون الدروسَ ؟ فيقولون إنه لا توجَدُ دُروسٌ . بل إن البعضَ يشكو مُرَّ الشكوى من الأئمةِ والعمالِ الذين يطردون المصلينَ الراغبينَ في تلاوةِ القرآنِ الكريمِ في المسجدِ وحِفظِه ؛ فما أنْ تنتهي الصلاةُ حتى يقومُ العمالُ بإطفاءِ الأنوارِ وإغلاقِ النوافذِ تمهيداً لإغلاقِ المسجدِ . وفي كلِّ مسجدٍ مكتبةٌ صغيرةٌ أو كبيرةٌ ، لكنها مُغلقةٌ على الدوامِ ، ومن العسيرِ أن يستعيرَ أحَدٌ كتاباً منها ، ويُقالُ للناسِ إنها «عُهْدةٌ» ومسئوليةٌ ، ومن الممنوعِ إعارةُ أيِّ كتابٍ منها أو إخراجِه للاطِّلاعِ في المسجدِ . وتأتي المناسباتُ الإسلاميةُ وتذهبُ فلا يشعرُ بها أحدٌ ، لأنَّ الإدارةَ لا تنظمُ محاضرةً أو ندوةً مُفيدةً . وصارَ هذا الوضعُ هو الشائعُ والغالبُ ؛ واعتادَ الناسَ عليه . فالمساجدُ مغلَقةٌ ، لا تفتحُ أبوابَها إلاَّ وقتَ الصلاةِ فقط ، ثم تُغلقُها . وأيُّ مُطالبةٍ بأيِّ نشاطٍ تُقابَلُ بالاستنكارِ والرفضِ . وهذا هو التخريبُ المعنويُّ للمسجدِ . فالمبنَى موجودٌ ومُزخرَفٌ ؛ ولكنه مَهجورٌ ،

فارغٌ من العلمِ والتعليمِ ، والتلاوةِ والحفظِ لكتابِ اللهِ . وحتى خطبة الجمعةِ تدهورَ مستواها بصورةٍ مُفزعةٍ ، (وهو الوضعُ الذي حَمَلني على كتابةِ هذه الخطبِ) . فالخُطبةُ صارَتْ مجردَ كلامٍ لا يكادُ يفيدُ في شيءٍ !

- وكثيرٌ من المساجدِ لا يجدُ العنايةَ الكافيةَ بنظافتِه . فدوراتُ المياهِ قذرةٌ والحماماتُ تالفةٌ ؛ ومن الصعبِ قضاءُ الحاجةِ دون التعرُّضِ للنجاساتِ . وكثيرٌ من الصنابيرِ تالفةٌ ، والماءُ يتدفقُ منها دون انقطاعٍ ؛ وذلك تبذيرٌ مُحرَّمٌ في دينِ اللهِ ، لكنَّ أحداً لا يشعرُ بهذه الحُرْمَةِ الشديدةِ . ورَحْبَةُ المسجدِ مفروشةٌ بالسجاجيدِ ، لكنها مُهمَلةٌ ، فتجدُ الترابَ يُغطيها ، وقد الْتوَتْ أطرافُها فأصبحَتْ عَثرَةً في طريقِ المصلين . وتنبَعِثُ من الجزءِ القريبِ من دورةِ المياهِ روائحُ كريهةٌ بسببِ البَللِ الذي لا يكادُ يجفُّ والذي تُسبِّبُه أقدامُ المتوضئين المبتلةُ . ولا ننسى اللَّحنَ في الأذانِ الذي شاعَ واسْتفحلَ وأعلنَ عن نفسِه عَبْرَ مكبراتِ الصوتِ التي تُجلجلُ خمسَ مراتٍ في اليومِ ، وتجعلُ المسلمَ العارفَ الغيورَ على دينِ اللهِ يَقشعِرُّ من هَولِ ما يسمعُ ! ومهما تنصحُ وتُصحِّحُ ، يتكررُ اللحنُ نفسُه دون أدنى تحسُّنٍ ! وهناك مَن يستطيعُ أن يرفعَ الأذانَ الشرعيَّ السليمَ ، لكنهم لا يسمحون له بالأذانِ لاعتباراتٍ أنانيةٍ . تُرَى متى نُصحِّحُ هذه الأخطاءَ ؟

(الدعاء)

دروسٌ من فتْحِ مَكة

● **الغاية من الخطبة** : عَرضُ فصلٍ مُشرقٍ من السيرة النبوية الشريفة ، واستخلاص الدروس العظيمة منه ، وهو يوم الفتح الأكبر ، يوم فتح مكة المكرمة .

● **العناصر الأساسية** :

(١) وفاء المسلمين بعهدهم مع المشركين ـ عهد الحديبية ـ حتى نقضوه فانتصروا لحُلفائهم .

(٢) المشركون نقضوا عهدهم ، ثم حاولوا إرضاء المسلمين دون جدوى .

(٣) الإعداد السريُّ لمعاقبة قريش وفتح مكة ؛ وقصة حاطب بن أبي بلتعة .

(٤) تواضع النبي ﷺ حين دخل مكة منتصراً .

(٥) جيش النبيِّ ﷺ يثبتُ أنه جيش نبيل بلا عدوان ولا نهْب ولا سَلب .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

(١) السيرةُ النبويةُ المُشرَّفةُ كَنزٌ غنيٌّ بالدروسِ والعِبَرِ . ومن واجبِنا أن نعودَ إليها من حينٍ إلى حينٍ ، نلتمسُ الهدايةَ من فُصولِها المُشرقةِ . فهي ليستْ مُجرَّدَ تاريخٍ بل جزءٌ من السُّنةِ النبويةِ المُطهرةِ ، لأنها تُبيِّنُ للمسلمين أعمالاً كثيرةً عظيمةً لنبيِّهم . وفتحُ مكةَ في أواخرِ شهرِ رمضانَ المعظمَ سنةَ ثمانيةٍ للهجرةِ أحدُ الفصولِ المُثيرةِ ، الغنيةِ بالعِبَرِ والدروسِ والحقائقِ المدهشةِ .

– وأولُ درسٍ فيها هو : الوفاءُ بالعَهدِ . والعَهدُ المقصودُ هنا هو عَهدُ الحُدَيبيَةِ الذي عَقدَه النبيُّ ﷺ مع مُشركي مكة . ودَخلَتْ قبيلةُ خُزاعَةٍ مع النبيِّ ، ودخلتْ قبيلةُ بَني بَكرٍ مع المشركين . والمفروضُ أنَّ تلك المُعاهَدةَ أنهَتْ النزاعَ الذي كان قد وقعَ بين القبيلتيْن في الجاهليةِ ، وأنَّ الجميعَ صاروا يَنعَمون بالأمنِ والسلامِ والطُمأنينةِ في ظلِّ تلك المُعاهَدةِ . لكنَّ المشركين من بَني بَكرٍ لم يلْتزموا

بالعَهدِ ، ونَكثوهُ ، بأن هاجَموا قبيلةَ خُزاعَةٍ على حينِ بَغتةٍ ، ليلاً ، عند بئرٍ لهم ، فقتلوا عدداً من رجالِهم . وانضمَّتْ قريشٌ إلى صَفِّ بَني بَكرٍ في نَكثِ العهدِ والغَدرِ الوضيعِ بحُلفاءِ النبيِّ من خُزاعَة . وعلى الفَورِ أرسلَتْ خُزاعةُ أحدَ رجالِها إلى النبيِّ في المدينةِ المنورةِ ـ وكان اسمُه «عمرو بنُ سالم». وشرحَ الرجلُ قصةَ الغَدرِ اللئيمِ الذي اقترفَهُ بنو بكرٍ ، بدَعْمٍ من قريشٍ ، على مَسْمَعِ النبيِّ ﷺ ، وعَدَّدَ الخسائرَ التي حاقَت بقومِه . فأجابَه الرسولُ قائلاً في حَزْمٍ : «نُصِرْتَ يا عمروَ ابنَ سالم !» وهكذا احترمَ النبيُّ العهدَ طالما احترمَتْه قريشٌ ؛ وهكذا أنهاهُ بعد ما أنهتْهُ قريشٌ . وهذا هو الدرسُ الأولُ لنا اليومَ : فالوفاءُ بالعَهدِ واجبٌ طالما احترمَه الطرفانِ . فإذا نَكثَه طرَفٌ سقطَ عن الطرَفِ الآخرِ في اللحظةِ نفسِها .

(٢) وأدركَتْ قريشٌ فَداحةَ جريمتِها في حقِّ النبيِّ ﷺ ، فسارَعَتْ إلى إرسالِ زعيمِها أبي سُفيانَ بن حربٍ إلى المدينةِ المنورةِ ، ليطلبَ من النبيِّ مَدَّ مدةِ العهدِ وتقويتِهِ ! وقد ظنوا أن خُزاعةً لم تُرسلْ أحداً إلى المدينةِ ، وأنَّ محمداً ﷺ لم يَعلمْ بما حدثَ ، وعلى ذلك يمكنُهم استغلالُ الفرصةِ لتقويةِ المعاهدةِ وإطالةِ مدتِها . ولم يستجبْ النبيُّ لتوَسُّلاتِ أبي سفيان . فدارَ على بيوتِ المهاجرين لكيْ يتَشفَّعوا له عند النبيِّ ، فأَبَوْا ؛ وكلمَ أبا بكرٍ الصديقَ ، وعمرَ بن الخطابِ ، وعليَّ ابن أبي طالبٍ ، وغيرهُم ، فلم يستجيبوا له . ولما يَئسَ منهم ، دخلَ المسجدَ النبويَّ وأعلنَ أنه أجارَ بين الناسِ ! ولكن النبيَّ لم يوافقْ على تلك الإجارَةِ ، فعادَ أبو سفيانُ إلى مكةَ خائباً ، والعهدُ منقوضٌ بين الطرفيْن .

(٣) وشرعَ النبيُّ ﷺ في الإعدادِ لفتحِ مكة فوراً . لكنه لم يُعلِنْ ذلك ، ولم يُهدِّدْ أبا سفيانَ ـ مثلاً ـ بأنه سيغزُوهم تأديباً لهم لِنكثِهم العهدَ . ولم يُخبرْ أحداً من المسلمين بالوُجهَةِ التي يَعدُّ العدةَ لغزوها . وذلك لكي يأخذَ العدوَّ على غِرَّةٍ ، فلا يضطرُّ إلى كثرةِ التضحياتِ وسفكِ الدماءِ . وقد وضعَ عند مداخلِ المدينةِ رجالاً يَرصُدون الداخلين والخارجين ، لكشفِ جواسيسِ الأعداءِ . وهذا درسٌ مفيدٌ في قضاءِ الحوائجِ في سريةٍ وكتمانٍ .

- وقد قادَ الضعفُ البَشريُّ صحابياً بَدْرياً إلى ارتكابِ جريمةٍ كبرى في حقِّ المسلمين . إنه « حاطبُ بنُ أبي بَلْتَعَة » ، الذي أرسلَ رسالةً مع امرأةٍ مشركةٍ إلى زعماءِ مكةَ يُحذِّرُهم من غزوِ النبيِّ لهم . وسببُ ذلك أنه كانت له مصالحُ في مكةَ ولم يكنْ له فيها أهلٌ ولا أقاربُ ، فأرادَ أن يكون له عندهم جَميلٌ أو مَعروفٌ ، فإذا طلبَ عَونَهم يوماً أعانوه . واكتُشِفَ السرُّ ، واعترفَ حاطبٌ بجريمتِه ، وعفا عنه النبيُّ ﷺ . وهذا أحدُ دروسِ ذلك الفتحِ العظيمِ . فالعفوُ عن الذنبِ مَشروطٌ باعترافِ المذنبِ واعتذارِه عنه ، وطلبِ العفوِ ممن اقترفَ الذنبَ في حقِّه . وسوابقُ المسلمِ لها أثرُها في العفوِ أو عدمِه . ولولا أنَّ حاطباً كان من أهلِ بدرٍ ، لَمَا كان جديراً بالعفوِ النبويِّ الكريمِ . وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « لعلَّ اللهَ قد اطَّلعَ على أصحابِ بدرٍ يومَ بدرٍ فقالَ : اعملوا ما شئتُم فقد غَفرتُ لكم » . ـ أو كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ . فإذا أخطأَ الواحدُ منا عليه أن يعترفَ في شجاعةٍ ودون تردُّدٍ بخطئِه ، وعليه أن يُسارعَ بالاعتذارِ عنه ثم يطلبُ العفوَ من أخيه ويَعِدُهُ بألاَّ يعودَ إلى ذلك الخطأِ . عندئذٍ ربما يستحقُّ العفوَ إن كان الذنبُ يسيراً ، وغيرَ مقصودٍ ، ولم يكنْ قد تكررَ منه . واللهُ تعالى يقولُ ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الشورى:٤٠) فنحن لا نعفو إلاَّ بأملِ الإصلاحِ .

(٤) والتواضعَ درسٌ عظيمٌ من دروسِ ذلك اليومِ الأغرِّ ، يومِ الفتحِ الأكبرِ . وفي حالاتِ النصرِ الساحقِ يظهرُ الكِبْرُ والغَطرَسةُ الممقوتةُ . لكنَّ النبوَّةَ مَصونةٌ عن تلك الآفاتِ . وأولُ آياتِ التواضعِ في أخلاقِ رسولِ اللهِ ﷺ أنه دخلَ مكةَ ساجداً للهِ تعالى على ظهرِ ناقتِه ، فكانَ طَرفُ لِحيَتِه يُلامِسُ الرَّحْلَ في أثناءِ السجودِ للهِ تعالى . ولم يَدَّعِ أنه هو صانعُ النصرِ ، لأن الأمرَ كلَّه للهِ يَنصرُ مَن يَشاءُ ، ويُعِزُّ مَن يشاءُ ويُذِلُّ مَن يشاءُ . واللهُ تعالى يأمرُه فيقولُ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر:١-٣) فأخذَ ﷺ يُسبِّحُ بحمدِ ربِّه وهو لا يزالُ راكباً راحلتَه . وبعد النصرِ صارتْ الكلمةُ العُليا له في شأنِ مكةَ وأهلِها . وعلى الرغمِ من ذلك

نزلَ في خَيمةٍ نَصَبوها له في شِعْبِ أبي طالبٍ ، ولم يدخلْ بيتَه لأن عَقيلَ بن أبي طالبٍ ـ ابن عم الرسولِ ـ كان قد باعَه ظاناً أن النبيَّ لن يعودَ إلى مكةَ أبداً ! وكان بوسعِه أن يُرسلَ بعضَ رجالِه ليُخرجوا الذين كانوا يسكنونَه ، لِيَشغَلَه هو . لكنه لم يفعلْ . ولم يكن يستطيعُ أن يغتسِلَ في الخيمةِ ، فكان يلجأُ إلى بيتِ ابنةِ عمه أُمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالبٍ ليغتسِلَ فيه ، وكان يُلاقي في ذلك صُعوباتٍ كثيرةٍ ، لكنه صبرَ واحتسبَ .

- ولقد ظنَّ سعدُ بن مُعاذٍ الصحابيُّ الأنصاريُّ الكبيرُ أن النصرَ على مشركي مكةَ الذين طغَوْا وبَغَوْا واعتدوْا على النبيِّ والمهاجرين يُعطي المسلمين الحقَّ في الانتقامِ منهم ، فقالَ سَعدٌ هاتفاً في الناسِ : «اليومَ يومُ المَلحَمةِ !» **لكن النبيَّ عارَضَه قائلاً : «اليومَ يومُ الـمَرحَمَةِ !» وامْتثلَ الجيشُ لقائده العظيمِ فلم يحدثْ نهبٌ ولا سَلبٌ ولا عُدوانٌ . وهذا مستحيلٌ أن يحدثَ من جيشٍ عاديٍّ ؛ فالنصرُ الساحقُ على العدوِّ يُطلقُ العَنانَ لغرائزِ الحيوانِ في نفوسِ الجنودِ ، فيتحولون عادةً إلى وحوشٍ ضاريةٍ ، لا تُبقي ولا تَذَرُ !**

(٥) شيءٌ واحدٌ فقط ضاعَ يومَ الفتحِ الأكبرِ : إنها قِلادةٌ صغيرةٌ كانت في عُنقِ أختِ أبي بكرٍ الصديق ، وكانت فتاةً صغيرةً ، تسيرُ في صُحبَةِ أبيها الضريرِ ، أبي قُحافة ، الذي وقفَ على جبلِ «أبي قُبَيْسٍ»، وهي معه تنظرُ إلى جيشِ المسلمين ، وتُخبرُ أباها بما ترى . وفي أثناءِ عَودتِهما ضاعَتْ القِلادةُ . ولا أحدَ يعلمُ مَن أخذَها . فكيفَ يدخلُ جيشٌ منتصرٌ قلبَ مدينةٍ كبيرةٍ مهزومةٍ ، دون أن تقعَ حوادثُ نهبٍ وسَلبٍ وعدوان؟ لقد حدثَ ذلك يومَ الفتحِ لأنه كان جيشاً نبوياً ، جيشاً مُجاهداً ، لا يبْتغي رجالُه سِوى مَرضاةِ اللهِ تعالى . ونحن اليومَ نعتزُّ بذلك الجيشِ النبويِّ ونفخرُ بانتسابِنا إلى ذلك النبيِّ الكريمِ ﷺ . ويجبُ أن نتعلمَ هذه الدروسَ العظيمةَ في السلوكِ والأخلاقِ ونتمسَّكَ بها ونُطبقَها .

(الدعاء)

الحياةُ ابتلاءٌ

● **الغاية من الخطبة** : تذكير المسلمين بحقيقة أن الحياة اختبار دائم .

● **العناصر الأساسية** :

(١) الحياة والموت للابتلاء .
(٢) والسمع والبصر ابتلاء .
(٣) والابتلاء في الأموال والأنفس .
(٤) والتكريم ابتلاء .
(٥) والمكانة ابتلاء .
(٦) والأنبياء أكثر الخلق ابتلاءً .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

(١) يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك:١،٢) هذه الآيةُ الكريمةُ تُعبِّرُ عن حقيقةٍ إسلاميةٍ كُبرى ، ألا وهي أنَّ كلَّ مَظاهرَ الحياةِ : من نِعَمٍ ، وأموالٍ ، وصحةٍ ، ومتاعٍ ومُتعَةٍ ، وقوةٍ ، إنما هي موادُّ اختبارٍ عظيمٍ خطيرٍ ، يَعقِدُه اللهُ تعالى لِعبادِه ، فيَنجحُ مَن يَنجحُ ، ويَرسُبُ مَن يَرسبُ . والنجاحُ في كلمةٍ واحدةٍ هو : الطاعة . والرسوبُ في كلمةٍ واحدةٍ هو : العِصيان . وكذلك الموتُ بكلِّ مقدِّماتِه : مِن العَجزِ والمرضِ والآلامِ ، امتحانٌ ، ينجحُ فيه المُفلحون ، الطائعون ، ويرسبُ فيه العُصاةُ المتمرِّدون .

- ويعبِّرُ القرآنُ الكريمُ عن هذه الحقيقةِ الكبرى في قولِه تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥) فاللهُ تعالى يُنعِمُ على العَبدِ بالخيراتِ الكثيرةِ العديدةِ ، يبتليه بها ، ويَختبرُه بمباهِجِها وحلاوَتِها . ويُصيبُه اللهُ بالشرورِ الكثيرةِ العديدةِ ، يَمتحنُه بها ، لِيُرَى كيف يكونُ سُلوكُه في مواجهةِ المصائبِ .

- وإنَّ مَعرفةَ هذه الحقيقةِ الكبرى تُوقِظُ المسلمَ وتفتحُ عَينيْه وتُزيلُ عنه الغَفلةَ ، فلا يَفعلُ شيئاً إلا بحسابٍ دقيق ، كما يفعلُ الطالبُ الذي يمرُّ بامتحان : فهو يُدقِّقُ ، ويَتحرَّى ، قبلَ أن يُجيبَ ، ثم يُراجعُ الإجابةَ ويُصوِّبُ ما فيها من خطأ .

(٢) ولْنتذكَّرْ أيضاً أن السَّمعَ والبَصرَ امتحانٌ . يقولُ ربُّنا ﷻ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان:٢) فهذه الحواسُّ البديعةُ التي تُمكِّنُنا من سماعِ الأصواتِ ورؤيةِ الأشياءَ والأشخاصِ ، والاستمتاعِ بجمالِها ورَونقِها ، إنما هي امتحانٌ خطيرٌ مستمرٌ ، طَوالَ وقتِ اليقظةِ . وقد نهانا ربُّنا ﷻ عن سماعِ أصواتٍ وكلماتٍ ومقالاتٍ قبيحةٍ . ونهانا عن النظرِ إلى أشياءَ ، فإذا انتهينا نجحْنا ، وإذا لم ننتهْ رَسَبْنا !

(٣) ويبتَلينا ربُّنا في أموالِنا وفي أنفسِنا ، فيُغدِقُ علينا الأموالَ ؛ أو يَحرمُنا منها ؛ وهو يَهَبُ لنا الأولادَ ويُبارِكُ فيهم ، أو يحرمُنا منهم ؛ وقد يُعطينا الولدَ فنُربِّي ونتعَبُ ، فإذا بلغَ الولدُ السَّعْيَ ماتَ أو قُتِلَ ! فهذا هو الامتحانُ العسيرُ في الأنفسِ والأموال . وفي هذا يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦) وقد حدثَ ذلك ، فقُتِلَ من المسلمين عددٌ كبيرٌ في الجهادِ ، وشَمِتَ المشركون فيهم وقالوا لأهليهم قَولاً قبيحاً ليُضاعِفوا من أحزانِهم .

(٤) وقد يُكرِّمُنا اللهُ تعالى ويُنعِّمُنا ، فنفرحُ بذلك ، وننسى أنه امتحانٌ ، فنتكبَّرُ على الناسِ ونتطاولُ عليهم بما لنا من كرامةٍ ونعمةٍ ، وبذلك نَرْسُبُ في الامتحانِ رُسوباً مُشيناً ! وقد يُصيبُنا ربُّنا بالفقرِ وضيقِ الرِّزقِ ، فنظنُّ أنه تعالى يُريدُ لنا الإهانةَ . والحقُّ أنه اختبارٌ ؛ وإذا نحن رَضينا ، وامْتثَلْنا وأطعْنا ، فقد نجحْنا في اختبارِ الفقرِ وضيقِ الرزق . يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴾ (الفجر:١٥،١٦) إنَّ الإهانةَ أو الخَسارةَ ليست في الفقرِ ؛

والكرامةُ أو العِزَّةُ ليستْ في الثراءِ . إنَّ النجاحَ في الامتحانِ ، بالفقرِ أو بالثراءِ ، هو الكرامةُ وهو العزَّةُ والفَوزُ المُبينُ . وإن الرسوبَ في الابتلاءِ ، بالتنعيمِ والغِنى ، أو بالفقرِ والضيقِ ، لَهوَ الهَوانُ والإهانةُ والخُسرانُ المُبينُ .

- فلْنحْرصْ إذاً على النجاحِ في الامتحانِ ، سواءٌ جاءَ بالغِنَى أو بالفقرِ . إذا جاءَ الابتلاءُ في كثرةِ الأموالِ ، فأوَّلُ درجاتِ النجاحِ إخراجُ زكاةِ المالِ الشرعيةِ ؛ وإذا وسَّعَ اللهُ على العبدِ في مالِه فلْيوسِّعْ في التبرُّعاتِ في أوجُهِ الخيرِ . وعلى المسلمِ أن يَجتنِبَ الإسرافَ والتبذيرَ فـ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الإسراء:٢٧) وإذا جاءَ الابتلاءُ بالفقرِ ، فأوَّلُ أسبابِ النجاحِ العِفةُ عن المالِ الحرامِ . إنَّ على الفقيرِ أن يَسعى لِكسْبِ رزْقِه ، وأن يَجتهدَ في ذلك على قَدْرِ طاقتِه ، لكنه يَرْسُبُ في الامتحانِ إذا سرقَ أو اختلسَ أو غشَّ أو طفَّفَ في الميزانِ ، أو الْتمَسَ أيَّ طريقٍ حرامٍ لكسْبِ المالِ .

(٥) ويُبتلى المسلمُ أيضاً بالمكانةِ المَرموقةِ التي يَرفعُه اللهُ إليها ، فيصيرَ كبيرَ قومِه ، أو رئيسَ أهلِه ، أو مديرَ شركتِه ، أو غيرَ ذلك من الوظائفِ القياديةِ المرموقةِ . فماذا يصنعُ المسلمُ بمثلِ هذه المكانةِ ؟ إنه يجبُ أن يتذكرَ أن اللهَ تعالى قد وفَّقه إلى ذلك وأعانَه ، ولا يقولَنَّ لنفسِه : أنا نجحتُ بذراعِي ! ! أنا فعلتُ كذا وكذا ، وأنا دفعتُ الثمنَ من عَرَقِي وجُهدِي ، وأنا وأنا وأنا ! ! ويَنسى توفيقَ اللهِ له نِسياناً تاماً ! وينسى قولَ اللهِ تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (الأنعام:١٦٥) فتلك إرادةُ اللهِ تعالى : هي التي ترفعُ هذا درجاتٍ ، وتُنزلُ ذاك درجاتٍ ! وفي كلِّ الأحوالِ ، نحن في امتحانٍ : الرئيسُ والمرْءوسُ ، الكبيرُ والصغيرُ ، المديرُ والغَفيرُ ، الجميعُ في امتحانٍ دائمٍ ؛ والسؤالُ المطروحُ هو : ماذا أنت صانعٌ بمكانتِك الكبيرة ؟ هل تستغلُّها في إقامةِ العدلِ ، ومنعِ الظلمِ؟ هل تستخدمُها في الاستبدادِ وإلْحاقِ الضررِ بالضعفاءِ؟ وصاحبُ الدرجةِ المتواضعةِ ، هل يقبلُها أم يَسعى إلى التَّرقِّي بالنفاقِ والرِّشوةِ والمحسوبيةِ والتزويرِ والكذبِ؟ أم يُصرُّ على سلوكِ طريقِ الجِدِّ والاجتهادِ والمثابرةِ؟

- الحقيقةُ أن كلَّ واحدٍ منا يُواجهُ هذه الأسئلةَ . ومطلوبٌ من المسلمِ أنْ يَلْتزمَ شريعةَ اللهِ تعالى سواءٌ كان مديراً أو خفيراً ، لكي ينجحَ في الامتحانِ ، وينالَ مَرضاةَ اللهِ في الدنيا والآخرةِ .

(٦) ولقد ابتلى اللهُ تعالى الأنبياءَ الكِرامَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم جميعاً . فالرسولُ الكريمُ محمدُ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ ابتُلِيَ بوفاةِ أولادِه جميعاً عدا فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها . وكان مثالاً عظيماً للصبرِ على الابتلاءِ في الأنفُسِ . وابْتُلِيَ في الدعوةِ إلى دينِ اللهِ ولقِيَ في سبيلِ ذلك أذًى شديداً . واضطُرَّ إلى الهجرةِ إلى المدينةِ المنورةِ تاركاً دارَه وأهلَه ووطنَهُ الحبيبَ إلى قلبِه ـ مكةَ المكرمةِ . وابتُلِيَ بالحروبِ التي شنَّها عليه أعداؤه من المشركين العربِ ومن اليهودِ والمنافقين في المدينةِ . وابْتُلِيَ بالردَّةِ التي تورَّطتْ فيها بعضُ قبائلِ العربِ قُبَيل وفاتِه ﷺ ، فكان الأُسوةَ الحسَنةَ لنا في الصبرِ والثباتِ .

- وابتُلِيَ نبيُّ اللهِ نوحٌ عليه السلام برَفضِ قومِهِ العَنيدِ لدينِ اللهِ ؛ وقد خانَه ابنُه وخانَتْه زوجَتُه ، فوقفا مع الكفارِ ضِدَّه عليه السلام . وحتى آخر لحظةٍ حاولَ نوحٌ جَذبَ ابنِه إلى الانضمامِ إلى المؤمنين وركوبِ السفينةِ ؛ لكنه رفضَ و﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ (هود:٤٣) وكان مَصيرُه الغَرَق !

- وابْتُلِيَ إبراهيم عليه السلام ، ونجحَ . وفي هذا يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة:١٢٤) وابْتُلِيَ أيضاً بأمرِ اللهِ له بذبحِ ولدِه إسماعيلَ عليه السلام .

- وأيوبُ عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣)

- ومعظم الأنبياءِ تعرَّضوا لمِحنةِ الطَّردِ من أرضِهم وأوطانِهم بسببِ تَمسُّكهم بدينِ التوحيدِ ، والدعوةِ إليه . والبشرُ جميعاً في ابتلاءٍ دائمٍ ، في السَّراءِ والضرَّاءِ . والسُّعداءُ هم الذين ينجحون ويفوزون بمَرضاةِ اللهِ تعالى .

(الدعاء)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

● **الغاية من الخطبة** : دعوة المسلمين إلى التحلّي بفضيلة الرحمة طاعةً لله تعالى واقتداءً برسوله ﷺ .

● **العناصر الأساسية** :

(١) غيابُ الرحمة اليوم من المجتمع المسلم ، ومظاهر ذلك الغياب ونتائجه .

(٢) ماذا يقول القرآن الكريم عن الرحمة في خُلُق النبي ﷺ ؟

(٣) الرحمة في سُنة النبي ﷺ .

(٤) المجالات العديدة لتطبيق هذه الفضيلة الإسلامية .

(٥) كيف كانت الرسالة المحمدية رحمة للعالمين؟

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

(١) أعتقدُ أننا في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى مُمارسَةِ فضيلةِ الرحمةِ فيما بيننا هذه الأيامَ . وتكفي نظرةٌ سريعةٌ إلى أحوالِ مُجتمعِنا اليومَ لكي نقتنِعُ بأنَّ الرحمةَ غائبةٌ عنه . فنحن للأسفِ الشديدِ نمارسُ القسْوةَ في مُعاملاتِنا ، ونُسبِّبُ العذابَ للآخَرين . فالزوجُ يُعذِّبُ زوجَتَه بضربِها أو شَتمِها أو التقصيرِ في حقِّها ؛ والزوجةُ تُعذِّبُ الزوجَ بعِصيانِ أوامِرِهِ وتبْديدِ أموالِه ، وفَضْحِ أسرارِهِ ، والتقصيرِ في حقِّ أولادِهِ الذين هم أولادُها . والأخُ يُعذبُ أخاهُ بأساليبٍ عديدةٍ ، مُشينةٍ ، فيَستولي على مِيراثِه من أبيهِ وأمهِ ، كلِّه أو بَعضِه . والشريكُ يُعذبُ شريكَه ، والجارُ يعذبُ جارَه ، والمديرُ يعذبُ الموظفين والعمَّالَ ؛ والموظفون والعمالُ يعذبون المديرين أيضاً ! وبعبارةٍ مُوجَزةٍ أقولُ : إنَّ الكلَّ يعذبُ الكلَّ !

(٢) وهذه الأوضاعُ السائدَةُ بيننا هذه الأيامَ ، ليست كما يريد الإسلامُ لنا ، ففي القرآن الكريم جاءَ لفظُ «رَحِمَ» ومُشتقاتُه ثلاثمائةَ مرةٍ ؛ وهذا يبيِّن المساحَةَ الواسعةَ التي يجبُ أن تَشغلَها الرحمةُ في حياةِ المسلمين . والرحمةُ في لُغةِ القرآن الكريم ضدُّ العذابِ . فَيقولُ الله تعالى ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ (الإسراء:٥٤) ويقولُ أيضاً ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ (المؤمنون:٧٥) ويقولُ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ (يونس:٢١) هذه الآياتُ الكريماتُ تبيِّنُ أن الرحمةَ نِعمَةٌ كبرى من عندِ اللهِ تعالى . وأن العذابَ نِقمةٌ يصيبُ اللهُ بها مَن يَشاءُ من عِبادِه . وأن البَشرَ ـ إذا أنعمَ اللهُ عليهم بالرحمةِ ـ يميلون إلى مَعصيةِ اللهِ تعالى ، إلا المؤمنون ، الذين يتَّخِذون من النبيِّ ﷺ أُسوَةً حَسنةً لهم . إنهم ليسوا مِثلَ سائرِ الناسِ الذين ينسَونَ ربَّهم إذا رفعَ عنهم العذابَ . فماذا يقولُ القرآنُ الكريمُ في فضيلةِ الرحمةِ في خُلُقِ النبيِّ الكريمِ ﷺ؟

- يقولُ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ويقولُ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) ويقولُ ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح:٢٩) ويقولُ ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٢٨) وعلى المسلمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ أن يتحلُّوا بالرحمةِ ، ولينِ الجانبِ ، والتخلِّي عن غِلظةِ القلبِ وما تؤدِّي إليه من القسوةِ وإلحاقِ الأذى والضررِ ، والعذابِ الأليم بمَن يعيشون حَولهم ومَن يتعاملون معهم مِن الأزواجِ والأولادِ والجيرانِ والأقاربِ والزملاءِ والشركاءِ ، وكلِّ الناسِ بلا استثناءٍ . فأنت يا أخي المسلمُ تستطيعُ أن تحتلَّ درجةً من ثلاثٍ : فهناك الدرجةُ التي لا يَرضاها الإسلامُ للمسلمِ ، وهي أن يكون المَرءُ سبباً في تعذيبِ الآخرين بأعمالِه العُدوانيةِ وألفاظِه البَذيئةِ ، وتصرُّفاتِه الجشعةِ والأنانيةِ . وهناك الدرجةُ السلبيةُ حيث يكون المرءُ خاملاً غير مؤثرٍ في

حياةِ مَن حولَه ، فهو لا يُسببُ العذابَ لأحَدٍ ولا يحاولُ تخفيفَ العذابِ عن أحدٍ . وهناك الدرجةُ الإيجابيةُ حيث يتحاشى المسلمُ تعذيبَ الآخرين بأيَّةِ طريقةٍ كانت ، وإذا وقعَ العذابُ على إنسان سارَعَ إلى مُساعدتِه للخلاصِ من العذابِ ـ وتلك هي الرحمة . فالمؤمنون ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح:٢٩)؛ والمجتمعُ المسلمُ مجتمعٌ رحيمٌ ، لا يُعذِّبُ فيه أحدٌ أحداً . وإذا أُصيبَ مسلمٌ بمرَضٍ أو حادثٍ أو وقعَ عليه عُدوانٌ ، سارعَ إليه إخوانُه لرَفعِ العذابِ عنه . وهذه الصورةُ الرائعةُ صارتْ باهتةً في مجتمعِنا الحالي . حقاً يُوجَدُ بينَنا عددٌ كبيرٌ من الرُّحماءِ ؛ ولكنَّ الأغلبيةَ أهمَلتْ تعاليمَ دينِها ولم تعُد تهتمُّ إلا بنفسها ، ولو أدَّى ذلك إلى تعذيبِ الآخرين . ولهذا لم يَعُدْ هناك فرقٌ كبيرٌ بين المجتمعِ المسلمِ والمجتمعاتِ غيرِ المسلمةِ . ويجبُ علينا أن نَبْذُلَ جُهوداً مُضاعفَةً في التربيةِ والتعليمِ لترسيخِ فضيلةِ الرحمةِ في قلوبِ الجماهيرِ ، وفي أعمالِهم ومشاعِرهم تجاهَ إخوانِهم .

(٣) وفي سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ أن الرحمةَ لا يجبُ أن تقتصِرَ على أهلِ المَرءِ المسلمِ ، بل يجبُ أن تمتدَّ لتشْملَ كلَّ مؤمنٍ . ولقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأصحابِه : « إن اللهَ تعالى رحيمٌ لا يضَعُ رحمتَه إلا على رحيمٍ». قالوا : إنا لَنرْحمُ أموالَنا وأهلينا . فقال : «ليس ذلك ، ولكن ما قالَ اللهُ ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٢٨) فالمسلمُ قد يَرحمُ أولادَه وزوجتَه ، وأهلَه ، ويكونُ قاسياً على مَن سِواهم . وهذا خطأٌ . فالرحمةُ كما نتعلمُها من الرسولِ ﷺ يجبُ أن تشملَ المؤمنين ، وأن تشملَ الحيوانَ والطيْرَ وكلَّ كائنٍ يشعرُ بالعذابِ .

(٤) فالرحمةُ واجبةٌ على المسلمِ تِجاهَ الإنسانِ والحيوان ؛ لأن الحيوان يشعرُ بالألمِ . ويُروى أن النبي ﷺ كان في سَفَرٍ ، فرأى رجلاً قد أمسكَ بفِراخِ يمامةٍ ، فأمرَه بردِّها إلى عُشِّها شَفقةً بأمِّها . وقد حكى لأصحابِه قصةَ الرجلِ الذي سقى الكلبَ العطشانَ : «فشكرَ اللهُ له ، فغَفرَ له». وأمرَ المسلمين بتحاشي تعذيبِ الحيواناتِ عند ذبحِها ، وقالَ : « . . إذا ذَبَحتُم فأحْسِنوا الذِّبحَةَ ، ولْـيُحِدَّ أحدُكم

شِفرَتَهُ ، ولْـيُرِحْ ذَبيحتَـهُ». وقضى بأنَّ : «مَن لطمَ عَبدَه ، أو ضَربَه حَدّاً لم يَأتِهْ ، فكفّارتُـه عِتْـقُـه». وقالَ ﷺ : «لعَنَ اللهُ مَن مَثَّلَ بالحيوان». ونهى عن إحراقِ النملِ بالنارِ وقالَ : «لا ينبغي أن يُعذِّبَ بالنارِ إلاَّ ربُّ النارِ». وهكذا يجبُ أنَ يكونَ المسلمُ والمسلمةُ . وهكذا نرى كم نحن الآن بعيدون عن أخلاقياتِ دِيننا في الرحمةِ بالبشرِ والحيوانِ والطيرِ . ولا بُـدَّ أن نلْـتزمَ بخُلُـقِ الرحمةِ الإسلامي الأصيلِ ونكُـفَّ عن تعذيبِ الآخرين بأيدينا وألسنتِنا وتصرُّفاتِنا العُدوانيةِ والأنانيةِ .

(٥) وقد كانت الرسالةُ المحمديةُ رحمةً للعالمين ، لأنها رفعَتْ العذابَ عن العربِ والعَجَمِ ، وعن كلِّ مَن آمنَ بها . فالتوحيدُ رحمةٌ لأنه يجلبُ مَرضاةِ اللهِ ؛ والشركُ عذابٌ لأنه سببٌ لغضبِ اللهِ تعالى وعذابِـه . وجمعُ العربِ في أمةٍ واحدةٍ خَلَّصتهُـم من الذُّلِّ للفُـرْسِ والرومِ ونصَرَهم عليهم وأعزَّ شأنَـهم ، وأنهى الحروبَ بين القبائلِ والعشائرِ العربيةِ . والعدلُ الذي جاءَ به الإسلامُ وضعَ حداً للمظالمِ في العالمِ الإسلاميِّ كلِّـه ، فنَعِمَ الناسُ جميعاً بالعدالةِ الإسلاميةِ ، وكان وأدُ البناتِ عذابًا أليمًا للبنتِ ولأبيها ، وعاراً للأُسرةِ أيضاً ، فلم يعُـدْ لتلك الجريمةِ البشعةِ مكانٌ بعد الإسلامِ . وكان الخمرُ عذاباً للمدمنين ، وما أكثرُهم في تلك الأيامِ الجاهليةِ ، فقضى الإسلامُ على الخمرِ وخلَّصَ المسلمين من عذابِـه الأليم . فإذا نحن حافظنا على دِيننا ، والْـتزمْنا بالرسالةِ المحمديةِ ، نعِمْنا بالسعادةِ والعدالةِ والطهارةِ والصحةِ والعافيةِ ، وكلِّ الخيراتِ الدنيويةِ إلى جانبِ مَرضاةِ اللهِ وثوابِـه الأُخرَويِّ .

(الدعاء)

الشورى نَهْجُ المسلمين

● **الغاية من الخطبة** : حث المسلمين على الالتزام بالشورى في أمورهم ونبذِ الاستبداد .

● **العناصر الأساسية** :

(١) مقدمة تبين أهمية الشورى في الحياة الفردية والاجتماعية .

(٢) القرآن الكريم يأمر النبي ﷺ بمشاورة المؤمنين .

(٣) تطبيقات نبوية للشورى .

(٤) القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨)

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

(١) المثلُ العربيُّ يقولُ : « عقلان خير من عقلٍ». ويُقصَدُ بذلك أن التفكيرَ في حلِّ مسألةٍ قد يفشلُ إذا مارسَهُ شخصٌ واحدٌ ، فإذا اشتركَ معه شخصٌ آخرَ ، نجحا معاً في الحلِّ . وإذا تشاورَ عددٌ من الرجالِ في حلِّ مشكلةٍ فإنهم يَصِلون إلى أفضلِ الحُلولِ الممكنةِ . وهذا الكلامُ شرحٌ لقولِ رسولِ اللهِ ﷺ : « ما ندِمَ مَن استشارَ ، ولا خابَ مَن استخارَ». ونحن نسمعُ في هذا العصرِ كلاماً كثيراً عن الديموقراطيةِ . والجميعُ يَمتدِحُها باعتِبارها أفضلَ النُظُمِ السياسيةِ . وجَوهرُ الديموقراطيةِ هو التشاورُ بين الناسِ واتخاذُ القراراتِ طِبقاً لإرادةِ الأغلبيةِ . وقد وُضِعَتِ النُظُمِ التي تُتَّبَعُ في تطبيقِ الديموقراطيةِ في المجالاتِ المختلفةِ . وفي التاريخِ الحديثِ والقديمِ ثبتَ سُوءُ النظامِ الاستبداديِّ الذي يرفضُ الشورى ، ويُعطي القرارَ لِفَردٍ أو مجموعةٍ من الأفرادِ لا يمثلون الأُمةَ ، أو المؤسسةَ أو الشركةَ . وقد أدَّى النظامُ الاستبداديُّ الفَرديُّ إلى كوارثَ شَنيعةٍ في البلادِ التي ابتُلِيَتْ به ؛ وفي

مجال التجارةِ خسرتِ الشركاتُ التي يَستبدُّ بإدارتِها أفرادٌ ؛ وكذلك الأُسَرُ التي يرفضُ الآباءُ فيها الشورى ، مع وجودِ الحُكماءِ والعُقلاءِ مِن الأجدادِ والأعمامِ والأخوالِ والأشقاءِ . فعلينا أن نَدَعَ الاستبدادَ بالرأي ، وأن نستمعَ إلى مَشورةِ الآباءِ والأجدادِ والأخوةِ ؛ بل إنَّ الابنَ كثيراً ما يكونُ له رأيٌ سديدٌ ؛ وفي هذه الحالةِ يجبُ على الأبِ أن يَنصِتَ إلى نصيحتِه . وأحياناً تُعبِّرُ الزوجةُ أو الابنةُ عن رأيٍ حكيمٍ ، فيجبُ الأخذُ به .

(٢) والقرآنُ الكريمُ يأمرُ النبيَّ ﷺ بمُشاورةِ المسلمين ، فيقولُ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) وقد نزلَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بعدَ يومِ «أُحُدٍ»، وقد كان يومَ حُزنٍ وغَمٍّ لأنَّ المسلمين انهزموا في تلك المعركةِ وقُتِلَ منهم أكثرُ من سبعين رَجلاً ، وأُصيبَ النبيُّ نفسُه ﷺ ، وكانت المعركةُ قد جَرَتْ بناءً على شورى . ذلك أنَّ الرسولَ استشارَ كِبارَ الصحابةِ في المكانِ الأنسَبِ لمُلاقاةِ المشركين ، فأشاروا عليه بالبقاءِ في المدينةِ حتى يَدْخُلَها المشركون وينتشرون في شوارعِها وحاراتِها ، وعِندئذٍ يَنقضُّ المسلمون عليهم . وقالَ كبارُ الصحابةِ من أهلِ المدينةِ إنَّ هذه هي خطَّتُهم التي اتَّبَعوها في كلِّ مرةٍ هاجمَهم عَدوٌّ ، وأنهم كانوا ينتصرون عليه . ووافقَهم النبيُّ على البقاءِ في المدينةِ . لكنَّ بعضَ الصحابةِ من الشبابِ الثائرِ رَأَوْا في ذلك مَهانةً لهم ، وطالَبُوا بالخروجِ إلى «أُحُدٍ» لمُلاقاةِ المشركين . ولم يَشأ النبيُّ ﷺ أن يُغضِبَهم ، فوافقَ على أن تكونَ المعركةَ في «أُحُدٍ». كأنَّ الآيةَ الكريمةَ تقولُ للمسلمين إنَّ الشورى واجبةٌ حتى وإن أدَّتْ ذاتَ مرةٍ إلى الهزيمةِ ، فالاستبدادُ يُؤدِّي إلى الهزيمةِ وإنْ أدَّى مرَّةً إلى النصرِ ؛ والشورى تُؤدِّي إلى النصرِ وإنْ أدتْ مرةً إلى الهزيمةِ .

(٣) ولم تكن تلك الهزيمةُ بسببِ الشورى في الحقيقةِ ، بل بسببِ عِصيانِ بعضِ المجاهدين لأوامرِ رسولِ اللهِ ﷺ . وقد حافظَ النبيُّ دائماً على مُشاورةِ أهلِ الرأي والخبرةِ والحكمةِ في كلِّ الأمورِ ، وكانت الشورى أحدَ أسبابِ النجاحِ والفلاحِ في حياةِ المسلمين . وشعرَ كلُّ صاحبِ رأيٍ بقيمَتِه ؛ وفي الشورى رحمةٌ ورفقٌ ولينٌ ، وبذلك جَذَبَتْ كِبارَ القومِ إلى جانبِ القائدِ العظيمِ ، فالتَفُّوا حولَه ، وأخلصوا له المَشورةَ الصادقةَ ، ولم يترددوا في مُعارَضتِه أحياناً من أجلِ مصلحةِ الأمةِ . وكان هو ﷺ يُشجعُهم على ذلك ، ولا يَغضبُ من المعارضةِ . وقد ذكرْنا الشورى يوم «أُحُدٍ» وكيف نزلَ النبيُّ ﷺ على رأيِ شبابِ الصحابةِ . ويومَ «بَدر» اسْتشارَ النبيُّ المهاجرين والأنصارَ قبلَ أن يقررَ خَوضَ المعركةِ ، لأنه خرجَ بهم أصلاً لاعتراضِ قافلةِ قريشٍ العائدةِ من الشامِ ، ولم يخرجْ للحربِ . ولما أفلتتْ القافلةُ توقَّفَ وأخذَ مَشورةَ الناسِ . ولمَّا أشاروا عليه بالحربِ مَضى في طريقِه . وأشارَ عليه الحُبابُ بنُ المنذرِ بمكانِ المُعسكرِ ، فغيَّرَ النبيُّ المكانَ ونفَّذَ مَشورةَ «الحُباب» . وفي معركةِ «الأحزابِ» ـ التي تُسمَّى «غزوة الخندق» أيضاً ، حفرَ المسلمون خَندقاً حولَ المدينةِ المنورةِ لمنعِ خيولِ المشركين من الاقترابِ من المدينةِ . وكان حَفرُه بمَشورةِ سَلمانَ الفارسيِّ ﷺ . ولم تكن العربُ تعرفُ الخنادقَ . ونجحَ المسلمون في صَدِّ أكبرِ جَيشٍ عَرَفتْه الجزيرة العربيةُ في ذلك الزمان . وأرادَ النبيُّ أن يَعقِدَ اتفاقاً معَ «عُيَيْنَة بنِ حِصْنٍ الفِزاريِّ» لكي يتركَ قريشاً وينسحِبَ من حِلفِ الشركِ الذي أحاطَ بالخندق . لكنه بعد اسْتشارة سَعْدِ بن مُعاذٍ وسَعد ابن عُبادَة ، رجعَ عن الاتفاق لأنهما رفضا الموافقةَ عليه . أما حين يأتي الوحيُ بأمرٍ من عندِ اللهِ فإنه لا مجالَ بعده للشورى . وكان الصحابةُ يسألون الرسولَ إنْ كانَ في الأمرِ وَحيٌ أم هو مُجرَّدُ رأيٍ . فإن أخبَرَهم أنه وَحْيٌ امتثلوا ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (البقرة:٢٨٥) وإن كان مُجرَّدَ رأيٍ أبْدَوا آراءَهم وناقَشوا المسألةَ ، ثم اتخذوا القرارَ النهائيَّ الذي ارْتضَوْهُ بكلِّ حريةٍ . وهكذا صارَ مجالُ التفكيرِ واسعاً يَشملُ : الاجتهادَ في المسائلِ الدينيةِ ، واتخاذِ القراراتِ الحكوميةِ ، وإدارةِ الشئونِ العسكريةِ والإداريةِ ، والبحوثِ العلميةِ ، واختراعِ الأدواتِ والوسائلِ المختلفةِ .

(٤) واتَّبعَ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم الكتابَ والسُّنةَ في العملِ بالشورى . قالَ تعالى في وصفِ المؤمنين ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨) وبيَّنَ النبيُّ ﷺ بأفعالِه وأقوالِه أن الشورى واجبٌ المسلمين جميعاً ، في البيتِ والمصنعِ والمستشفى والسُّوقِ والوزارةِ وكلِّ المجالاتِ . وأفلحَ المسلمون حين تشاوروا ؛ وحين استبدَّ بعضُهم بالرأيِ في أيِّ مجالٍ فَشِلوا وتخلفوا وانهزَموا . ويذكرُ التاريخُ أن عمرَ بن الخطابِ ﷺ حين أرسلَ الجيشَ لفتحِ بلادِ فارسِ (إيران الآن) لم يَفرضْ عليه قائداً عاماً بقرارٍ يتخذُه وَحدَه ، ولكنه جمعَ أهلَ الرأيِ واستشارَهم فاختاروا سَعدَ بن أبي وقاصٍ ﷺ ؛ وكان نِعمَ القائدُ المُظفَّرُ !

– والتزمَ سَعدٌ الشورى في قراراتِه السياسية والإدارية والحربية . من ذلك مثلاً أنه استشارَ مجلسَ حَربِه في أمرِ الوَفدِ الذي أرسلَه إلى الفُرسِ للتَّفاوضِ . وكان سَعدٌ يريدُ تكوينَه من تسعةِ أفرادٍ . لكنَّ رِبْعيَّ بن عامرٍ اعترضَ ، وقال : « إنَّ الفُرسَ لها آراءٌ وآدابٌ . ومتى نأتِهم جميعاً - يعني بوَفدٍ كبيرٍ - يَرَوْا أنَّا قد احْتَفلْنا بهم ، فلا تَزدْهم على رَجُلٍ ! » ووافقَ المجلسُ ، وأرسَلوا رِبْعِيَّ بن عامرٍ وَحدَه !

– ونحن أيضاً مُلزَمون بالشورى اليومَ ، لأننا مؤمنون والحمدُ للهِ . وكثيرون منا يستشيرون إخوانَهم وآباءَهم وأصدقاءَهم في المسائلِ المهمةِ . لكنَّ البعضَ يَنسَى واجبَ الشورى ، ويَستبدُّ برأيِه ! فنجدُ الشابَّ يَخطِبُ ويتزوجُ دون مَشورَةِ أهلِه ! ونجدُ الرجلَ يدخلُ في تجاراتٍ لا عِلمَ له ولا خبرةَ بها ، دون أن يستشيرَ أحداً . وبعضُ النساءِ يرفُضنَ مشورةَ الأهلِ المخلصين في مسائلَ خطيرةٍ ، كالتعليمِ ، والزواجِ ، والطلاقِ ، والعملِ . وتكونُ النتائجُ سيئةً جداً ، وإذا كان الإنسانُ مسئولاً عن أسرةٍ أو مؤسسةٍ ، فإن حاجتَه إلى الشورى تزدادُ . وعليه أن يُدقِّقَ في اختيارِ المستشارينَ ، ويتجنبُ المنافقين . واللهَ نسألُ أن يوفقَنا جميعاً إلى طاعتِه ونَيْلِ مَرضاتِه ، آمين .

(الدعاء)